المصدر: اكتوبر
التاريخ : ١٩٨٦/٣/٩

السادات
بين العمالقة والأقزام

عندما كتب حسن عزت مذكراته : « قصتى مع العمالقة والأقزام السبعة » لم يكن غرضه من الكتابه الدفاع عن السادات ، وإنما كان الدافع الرئيسى له - حسب نص قوله - هو الرد على ما وصفه بأنه « أكاذيب المرحوم السادات ، شقيق العمر ، وزميل الكفاح ، التى نسبها إلىّ ، خصوصا فى كتابه « البحث عن الذات » الذى أصدره عام ١٩٧٨ » . ومع ذلك فقد جاءت المذكرات وثيقة دفاع عن السادات فى أخطر ما تعرض له الرئيس الراحل على أيدى خصومه السياسيين ! . ذلك أن نزعة الانصاف عند حسن عزت تغلبت على نزعة الانتقام لما أحس أنه تعرض له من اساءة على يد السادات .

وحسن عزت شخصية تاريخية من الشخصيات التى لم تتعرض للأضواء من جانب الكتاب أو المؤرخين ، رغم أنه أحد مؤسسى أول تنظيم سرى فى الجيش المصرى سنة ١٩٤٠ من ضباط الطيران ، وهو - بذلك - مؤسس أول نوع من هذه التنظيمات السرية التى مهدت لظهور تنظيم الضباط الأحرار بعد ثمانى سنوات ، والذى احتوى على عناصر من هذا التنظيم الأول الذى ضم كلا من عبد اللطيف البغدادى ووجيه أباظة وحسن عزت وأحمد سعودى ، وأشركوا معهم فيما بعد أنور السادات وكان غرض التنظيم العمل ضد الإنجليز .

ومع ذلك فعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو لم يكن حسن عزت من قادتها ، لسبب بسيط .. هو أنه كان خارج الجيش ، فقد فصل منه مع أنور السادات فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وأودعا السجن فالمعتقل ، عمل حسن عزت سائقا ، بينما عمل أنور السادات تبّاعا (شيالا) ، واتهم الاثنان فى قضية مقتل أمين عثمان ، وأفرج عنه بعد أحد عشر شهرا ، وبعد الحكم بالبراءة على أنور السادات اشترك الاثنان فى مشروع مقاولات ، حتى آثر السادات الرجوع إلى الجيش بوساطة الدكتور يوسف رشاد رجل القصر الملكى ، وانضم إلى الحرس الحديدى ، وكان حسن عزت قد زوج السادات جيهان ، وهى ابنة خال زوجته . وكانت عودة السادات إلى الجيش مما فرق بينه وبين حسن عزت فى ذلك الحين ، اذ رأى فيها حسن عزت خيانة له . وبعد ثورة يوليو ألف حسن عزت كتابا اسمه « أسرار معركة الحرية » روى فيها قصته مع التنظيمات السرية والسادات ، وقد صدر عام ١٩٥٣ ، وقدم له كل من عبد اللطيف البغدادى وخالد محيى الدين وأنور السادات والفريق عزيز المصرى بكلمات فيها تقدير كبير لشخصه وتضحياته ، فكانت اعترافا بما ورد فى مذكراته من أدوار . على أن عبد الناصر أمر بشراء نسخ الكتاب جميعها لتوزيعها على ادارات ووحدات الجيش ، ولكنها استقرت فى مخازن الجيش بدلا من أن يقرأها الجنود والضباط !

ومع ذلك فقد تمكن صاحب هذا القلم من الحصول على نسخة من كتاب حسن عزت . فحين كنت أعد رسالتى للدكتوراه ، كنت أتردد يوميا على سور الأزبكية ، وهى عادة قديمة استمرت بعد ذلك ، حتى تحولت شقتى إلى مكتبة ! وصار لدى معظم المراجع والمصادر المكتوبة فى تاريخ مصر ، وتحولت إلى شراء الجديد فقط . وقد لاحظت أن ما كتبه حسن عزت فى مذكراته ، وما كان يكتبه غيره من الضباط فى ذلك الحين عن تنظيمات الجيش قبل الثورة ، وخصوصا ما كتبه أنور السادات ، على خلاف كبير فى المعلومات

والرأى ، حتى ليبدو كأن كل كاتب كتب رؤيته من منظور مختلف ! فالمبالغة والكذب وادعاءات البطولة واختلاق الحوادث تسود معظم هذه الكتابات .

وبالنسبة للسادات بالذات ، فانه يخلط بين الحقيقة والخيال بشكل كبير ، ويضخم الأحداث ، ويخلق من الحبة قبة - حسب القول المأثور ! - وتكاد تنعدم الدقة التاريخية من رواياته عن الأحداث ، كما تنعدم المسئولية أيضا ! (وكتابه الأخير بعنوان : « البحث عن الذات » شاهد على ذلك) .

ومن ثم كان على أن أتناول ما كتبه السادات فى حذر شديد ، وأحاول تنقيته بالاستعانة بالمصادر الأولية الأخرى ، ومنها مذكرات حسن عزت ، التى قدم لها السادات بنفسه ، ولم يعترض على حرف فيها .

وكان أن أخذت فى تفنيد ما كتبه السادات حول التنظيمات السرية فى الجيش قبل الثورة ، وسجلت ذلك فى رسالتى للدكتوراه عن « تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٤ » ، مما أزعج لجنة المناقشة ، التى أحجمت عن مناقشة هذه المسألة أمام الجمهور ، ولكنها ، بعد المناقشة ، دعتنى لتحذرنى من خطر تفنيدها ماكتبه « نائب رئيس الجمهورية » محمد أنور السادات فى ذلك الوقت ، وأذكر مما قاله لى أستاذى وصديقى الدكتور عبد الملك عودة انه لا ينبغى أن أتحمس للكتابة التاريخية إلى حد التعرض لنائب رئيس الجمهورية وتعريض نفسى للخطر ! وأنه يمكن الانتظار حتى تزول الأسباب السياسية التى تدفع إلى حجب هذه المعلومات ، وبعدها يمكن ابرازها .

وقد كان لهذا السبب أن حذفت بعض الفقرات من الرسالة عند اعدادها للنشر ككتاب ، حتى لا تتعرض للمصادرة ! .

ولكنى انتهزت فرصة صدور كتابى : « مذكرات السياسيين والزعماء فى مصر » ، فأثبت فيه التناقض فى كتابات السادات ، فى معرض تنبيه الباحثين فى التاريخ إلى خطورة الاعتماد على المذكرات السياسية دون تحقيق وتمحيص بالاستعانة بالدوريات والمصادر الأولية الأخرى .

على كل حال ، فقد سعدت حين وصلنى من لندن كتاب حسن عزت الجديد ، الذى ضمنه كتابه الأول « أسرار معركة الحرية » ، ومجموعة أخرى من الشهادات والوثائق ، على الرغم من اختلاط الأوراق فى هذا الكتاب ، وافتقاره إلى التسلسل التاريخى ، أو عنصر الانسجام بين أحداثه . ولكنى قدرت من الرجل أنه وإن كتب كتابه ردا على ما وصفه بـ « أكاذيب السادات عنه » فإنه كان منصفا للرجل ما خلا العلاقات الشخصية بينهما ، مما يجعل ما كتبه حسن عزت فى هذا الصدد شهادة من خصم لا صديق .

ويعتبر ما كتبه عن الميراث الذى تركه السادات مما يفند الأقاويل التى كتبت عن ثروة السادات بعد وفاته . والتى أطلقها خصومه السياسيون افتراء . وأهمية ما كتبه تنطلق من أنه كتب فى مقام الاتهام لا الدفاع ! . فقد كتبه فى مقام اتهام السادات بعدم العدل بين أولاده من زوجته السابقة السيدة اقبال ، وأولاده من السيدة جيهان .

فيذكر أنه فى زيارة له للسيدة اقبال سألها عن معاش البنات وميراث والدهم السادات ، فاذا اجابتها بمثابة « الصاعقة الكبرى » - حسب قوله - : « لقد قالت الحاجة إقبال باستسلام : معاش ايه ؟ طلبونا فى ادارة المعاشات ، وقالوا لنا إن معاش السادات ٥٠٠ جنيه فى الشهر ، بناتك ٢٥٠ ، والسيدة جيهان ٢٥٠ . وهكذا كل شئ » .

ويستطرد قائلا : « ثم جاء ما هو أدهى وأمر ، عندما سألتها عن ميراث السادات ، وقالت انه لم يترك مليما واحدا ! . قلت : والمنزل الكبير فى ميت أبو الكوم .. والـ ١٨ فدانا ؟ فنظر إلى سعيد ماضى (شقيق السيدة اقبال) وقال : لقد بعتهم له بثمن بخس . عندما قال لى انه يريد الأرض لبناء بيت كبير يؤوى أختى وبناتها بعد مماته . لكنه سجلها باسم ولده جمال من الست جيهان ! صدمت ، ورحت أضرب كفا على كف ، لكنهم : سعيد ماضى ،

والحاجة اقبال وبناتها ، قالوا إن هذه هى الحقيقة عارية فتركتهم ، وتوجهت على الفور إلى الأستاذ عبد الحليم رمضان ، المحامى العملاق ، ورويت له الحكاية ، فأبدى استعداده لمقاضاة الطرف الآخر لرد الحق وتحقيق العدل » .

هذا ما كتبه حسن عزت عن الميراث الذى تركه السادات . ونقطة تركيزى هنا لا تنصب على ما إذا كان السادات قد عدل أو لم يعدل بين أولاده ، وإنما التركيز ينصب على ميراث السادات وقدره ، بالنسبة لما حيك حوله من الاشاعات من خصومه السياسيين ، دون أن يمتلك أحدهم الدليل على ذلك ! والمفارقة هنا أن يكون هذا هو ميراث الرجل الذى أسس سياسة الانفتاح ، بينما ميراث أصغر ملك من ملوك الانفتاح يبلغ ملايين الجنيهات !

أما القضية الثانية التى تناولها حسن عزت ، فهى اشتراك السادات فى الجرس الحديدى للملك السابق فاروق . وهى قضية يحلو لخصوم السادات من أعضاء مجلس قيادة الثورة التندر عليه بها . وقد اتهم حسن عزت السادات بأنه كان عميلا مزدوجا لكل من العرش ، مقابل المال ، ولتشكيل الضباط الأحرار ، مقابل ما قد يصلون اليه فيما لو نجحت الحركة واستولوا على الحكم .

على أن حسن عزت لم يملك إلا أن يورد نص ما كتبه الدكتور محسن عبد الخالق - وقد وصفه بأنه كان من أخلص المخلصين للحركة - ردا على هذه المسألة . وفيها يورد الدكتور محسن عبد الخالق ، سفير مصر فى السعودية ، قصة الجرس الحديدى ، فيقول ان هذه القصة تبدأ بالدكتور يوسف رشاد ، وهو ضابط وطبيب مشهور كان يعمل فى القصر الملكى ، « وقد عمل على تكوين شلة له من الضباط الشبان ، تلتف بالملك ، وتكون حزبه العسكرى . وكانت هناك مقولة بأن الملك « كويس » ، ووطنى ، ولكن المصيبة هى من المستفيدين حوله ، وانضمت مجموعة من خيرة ضباط الجيش إلى يوسف .

« وهذه المجموعة لم تفعل شيئا ضارا بالجيش أبدا ، ولم تتجسس أبدا على ضباط الجيش . وكنا نحن الضباط الأحرار نعرفهم بالاسم ، وهم يعرفوننا ، ونحن الذين سميناهم الحرس الحديدى ! وكان بعضهم يبلغنا بأخبار السراى .

« وأقول : لو كان أحد ضباط الحرس الحديدى يتجسس علينا ، لأضر بواحد منا مثلا ، ولو بنقله . ولكن لم تحدث حادثة واحدة . واشترك بعض ضباط الحرس الحديدى فى الثورة ، أى خرجوا ليلة ٢٣ يولية .

« وبعدها حدثت مشكلة وأقاويل حول الحرس الحديدى . فكلفنى جمال عبد الناصر بالذات ، بتولى الموضوع والتحقيق وجمع المعلومات ، وسلمت التقرير النهائى له ، واعتبر عبد الناصر الموضوع منتهيا » .

أما القضية الثالثة ، فهى قضية زعم خصوم السادات السياسيين تهربه من الاشتراك فى الثورة عن طريق دخوله السينما ليلة الثورة ، وافتعاله مشاجرة لاثبات وجوده بالسينما فى حالة فشل الثورة ، ووصوله إلى القيادة بعد انتهاء العملية . وقد نقل حسن عزت عن الدكتور محسن عبد الخالق أيضا أن عبد الناصر كون لجنة بعد الثورة لتحقيق هذه الواقعة ، وكان سكرتيرا لهذه اللجنة ، وتبين له أن عبد الناصر كان قد أرسل حسن ابراهيم بالطائرة لابلاغ

أنور السادات بالحضور إلى القاهرة قبل يوم ٢٢ يوليو ، وأن السادات قد حضر بالفعل ولكنه لم يجد خبرا أو رسالة من جمال عبد الناصر حتى حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة ، فاصطحب زوجته إلى السينما ، وترك خبرا لدى البواب باسم السينما ، وأبلغه أنه اذا حضر أى شخص له ، وترك رسالة ، ورجاه أن يخبره اذا حدث ذلك (مدير السينما) . وأبلغ مدير السينما ، وأبلغه أنه اذا حضر أى شخص له ، وترك رسالة ، أن يحضرها إلى السينما (مدير السينما) . وأبلغ مدير السينما بأنه فى الداخل ، وأنه ينتظر صديقا أو رسالة منه ، ورجاه أن يخبره اذا حدث ذلك (من هنا نشأت واقعة الخناقة

وشائعتها) . وقد ذهب عبد الناصر لأنور السادات ، وترك رسالة ، ولكن البواب لم يبلغها ، وعند عودة أنور السادات حوالى الساعة ١٢,٣٠ أو ١٢,٤٥ مساء ، وجد رسالة جمال عبد الناصر ، فلبس الملابس العسكرية ، وذهب فورا إلى مقر القيادة فى كوبرى القبة ، فوصل حوالى الساعة الواحدة ، وقد تأكد وصوله قبل بدء الهجوم .

على أن الملازم أول محمود عباس قبض على السادات لعدم معرفته ، ووضع عليه حرسا بالسونكى . ولكن السادات سمع صوت عبد الناصر . فنادى عليه . وطلب من محمود عباس أن يأخذه اليه ، فتقابل مع كل من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، واتجه الثلاثة إلى مبنى القيادة ، وكان ذلك قبل الهجوم . وقد ذكر محمود البلتاجى أنه عندما دخل وجماعة قيادة الجيش ، أمرهم جمال عبد الناصر بفتح المكاتب وتوزيع الضباط (ضباط الثورة) عليها ، فاسماعيل فريد احتل مكتب جمال صابر (أركان حرب الإدارة) ، اسماعيل فريد احتل مكتبا ، وعباس رضوان المكتب الخارجى . وقد ذهب البلتاجى وعباس إلى التحويلة (التليفونات) فوجدا أنور السادات خارجا منها . ومن ثم فواقعه اشتراك السادات فى الثورة ثابتة بشهودها الأحياء . وكان هناك تندر بذهاب أنور السادات إلى السينما والثورة ستقوم ، وكان يقال : يا أخى أعصابه باردة ، تلمة !! إلخ !.

بقيت قضية مؤسفة حقا تدل على المدى الذى ذهب إليه خصوم السادات فى تشويهه ورميه بكل النقائص ، إلى حد رميه بتهمة الشذوذ الخلقى ! ، ونشر ذلك على العالم العربى فى مقال نشرته مجلة « الوطن العربى » حول محاكمة عبود الزمر . ولم يتردد حسن عزت - الذى كتب كتابه لمهاجمة السادات - أو على حسب قوله : « الرد على أكاذيب السادات » - فى أن يدافع عنه دفاعا مستميتا فقد كتب يقول : « هذا الكلام خرافة ، وتشنيع ، ولا أساس له من

الصحة ، ولا يصدقه عقل . فأنا صديق العمر لأنور السادات ، وعشت معه فى بعض سجون مصر خمس سنوات ، لم يترك فيها أنور فرضا واحدا من الصلاة ، أو يؤخره من وقته ، ولم يكن هذا منه اصطناعا للتقوى . أو تظاهرا بالاستقامة . فأنور كان طول عمره مستقيما ، وورعا وتقيا يعرف ربه جيدا ، ويعبده ويخافه . كما أننى عاشرته السنين الطوال فى فترة شبابه وبعدها ، فلم تظهر عليه ، أو يعرف عنه ، أحد مظاهر الانحراف فى أى فترة من فترات حياته . فأنا أكذب هذه الواقعة قطعا ، وأبرئ أنور من أى نقيصة من هذا النوع يريدون اتهامه بها والصاقها كذبا بأنور السادات » .

على هذا النحو ينقلب المهاجم حسن عزت مدافعا عن السادات ، لمجرد أنه تحكمه أخلاق ومبادئ تدفع به إلى رفض الافتراء والظلم . بينما يتدنى كثيرون إلى أسفل الدرك فى تلطيخ بطل حرب أكتوبر ، ومحقق أول نصر فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، ومحرر سيناء من حذاء الاحتلال الاسرائيلى ويرفع هذا القطيع بطل نكسة يونية ١٩٦٧ إلى مصاف العمالقة والأبطال ، بعد أن ضاعت فيهم البطولة وتلطخت فى مستنقع السياسة العفن !

د . عبد العظيم رمضان